الاحد 15 شعبان 1421 هـ 12 نوفمبر 2000 العدد 8020

الخطاب العربي بين الانفعالية والتقدير

تركي الحمد

مقالات سابقة للكاتب
إبحث في مقالات الكتاب

فوجئ بعض المحللين بتلك النبرة العاطفية الواضحة في كلمة الأمير عبد الله بن عبد العزيز في مؤتمر القمة العربي الخامس والعشرين، حين حديثه عن ذلك المنظر المؤثر للطفل الشهيد محمد الدرة ووالده، وكيف أثر ذلك في وجدانه، كما أثر في وجدان أي فرد فيه ولو ذرة من شعور إنساني، ولا أقول عربياً أو مسلماً أو غير ذلك، ممن يكون حماسهم وتأثرهم شيئاً مفروغاً منه. فمثل هذا الحديث المشوب بالعاطفة، غريب بعض الشيء عن الخطاب السياسي السعودي التقليدي، الذي يتصف عادة بالهدوء، والبعد عن العاطفة الجياشة، والتحفظ النسبي، كي لا نقول الشديد، في الطرح والشفافية ولغة الخطاب. كما فوجئ البعض الآخر في ذات الوقت، بتلك النزعة العملية الصارمة، والالتزام الدقيق بمحددات الواقع، التي احتوتها كلمة الأمير، من حيث أن الكلمة لم تكن مجرد ابداء للعواطف الجياشة التي يعتمل بها صدر الأمير، ووجدانه المجروح، كما هي العادة في مثل هذه التجمعات العربية، بقدر ما كان عملياً من حيث تحديد خطوات ملموسة لدعم الانتفاضة الشعبية الفلسطينية، والهوية العربية للقدس.

فهو، أي الأمير، حين يقترح صندوقاً عربياً لدعم الانتفاضة، وصندوقاً آخر لدعم هوية الأقصى، إنما يقترح خطوة عملية ملموسة أولية من أجل دعم فعلي في حدود الإمكان لقضية مستقرة في وجدان كل عربي ومسلم، بعيداً عن مزايدات وشعارات خبرناها وجربناها، فوجدناها لا تبني عشاً لعصفور، ولا هي قادرة على وخز عدو بإبرة. وبالنظر إلى الكلمة بشكل شامل وعام، يمكن القول ان الأمير كان يحاول أن يوازن بين موقفه وانفعالاته كمواطن عربي عز عليه كل هذا الضعف، وكل هذا العجز العربي الراهن، فانفجر صدره بكل ما هو وجداني، وبين موقفه كمسؤول قيادي يحاول أن يتلمس أفضل الحلول العملية الممكنة لمثل حالة الضعف والعجز هذه، في ظل معطيات سياسية دولية لا تنفعل بمجرد الوجدان، دون أن يجعل العاطفة الجياشة تتملكه تماماً، فيغيب العقل العملي، وتنتهي العاطفة والعقل معاً في النهاية. ومن هنا، فلم يكن خطاب الأمير عاطفياً بحتاً، وإن كان حار العبارة، بحيث يتحول إلى مجرد «فضفضة» وجدانية لا تلبث أن تنتهي بعد أن تهدأ الأعصاب، وتبرد المشاعر، ولكنه حاول مزج ثورة الوجدان بما هو في حدود الإمكان من خطوات عملية ملموسة، قد لا تكون في مستوى الأحلام دفعة واحدة، ولكنها على الأقل خطوة من أجل تجسيد ما عجزنا عن تجسيده طوال عشرات السنين من اللت والعجن في الألفاظ والمفردات، فيما الطرف الآخر يفعل ويؤثر بصمت وهدوء.

وإن كان البعض قد فوجئ بمثل هذا الخطاب في كلمة الأمير عبد الله واستغربها، فإنني لم أفاجأ حقيقة ولم أستغرب. فمنذ كلمات الأمير في قمة طهران الإسلامية، وقمة دول مجلس التعاون الأخيرة، وفي زياراته المختلفة في الداخل والخارج، وأنا أرى أن هنالك خطاباً سياسياً جديداً يحاول أن يبشر به عبد الله بن عبد العزيز. وهو خطاب يحاول فيه أن يكون عملياً قدر حدود الإمكان في السعي نحو تحقيق أحلامه، حتى لا يخسر الأحلام كلها جملة وتفصيلاً. فالسياسة في النهاية هي فن الممكن، مع عدم إغفال جذوة الوجدان التي هي الوقود الذي لا يمكن للأحلام أن تتحقق بدونه. والأحلام في النهاية هي أمل المستقبل، ولنتعلم من اليهود في هذا الشأن، ولا ضير في ذلك، طالما أن مصلحة الجماعة، وهي الغاية، هي المآل. فإذا كان العلم يطلب ولو في الصين، فإن التجربة والحكمة هما المطلوبتان، ولو كانتا عند عدو ما من صداقته بد، أو عند صديق ما من عداوته بد.

فدولة إسرائيل، التي هي اليوم سيدة الشرق الأوسط، ولم تكن قبل قرن من الزمان إلا حلماً باهتاً في مخيلة صحافي نمساوي (ثيودور هرتزل) وثورة وجدان في نفس ذلك الصحافي، الذي وضع كتاباً في أعقاب محاكمة الضابط اليهودي الفرنسي درايفوس الشهيرة في باريس، أسماه «الدولة اليهودية»، وكان حلم إسرائيل بين دفتي ذلك الكتاب، في ذات الوقت تقريباً الذي تفجرت فيه المشاعر القومية العربية، وبدايات ما سمي لاحقاً «عصر النهضة العربية». ولكن هذا الصحافي لم يكتف بمجرد الحلم والتبشير به، أو مجرد العمل السياسي دون بنية تحتية اقتصادية واجتماعية، كما كان حال المبشرين بالنهضة العربية الحديثة من أفراد ومنظمات، بل بدأ خطوات عملية تفصيلية تسير وفق مراحل مدروسة، وفي إطار استراتيجية واضحة المعالم والحدود، لتحقيق ذلك الحلم. فكان المؤتمر الصهيوني الأول في بازل السويسرية، الذي وضع الخطوات العملية التفصيلية والمتدرجة التي أدت في النهاية إلى خلق دولة إسرائيل. لم يناد مؤتمر بازل الصهيوني الأول بمجرد جمع شتات اليهود في وطن واحد، ومن ثم في دولة واحدة، بل بيّن كيف يكون ذلك. وفي سؤال «كيف» تكمن المعضلة العربية، فالأهداف معروفة وشبه متفق عليها، ولكن كيف يمكن تحقيقها هو المهم، بمثل ما أن المهم ليس في حل تعليق الجرس، ولكنه يكمن في كيف يمكن تعليق الجرس.

فعلى الجانب العربي، وعلى النقيض من ذلك، كانت المشاريع والأحلام من الضخامة بحيث أنها لم تكن لترضى بما دون النجوم وتخوم السماء، وليكن ذلك، فالأحلام لا تحدها حدود. ولكن المشكلة كمنت في أنها بقيت مجرد أحلام دون استراتيجية وبالتالي دون تكتيك، ودون خطوات عملية واضحة النتيجة، ملموسة الكيان، بل وحتى دون رؤية واضحة. فكلما كبرت الأحلام، كثرت التفاصيل التي يجب أخذها في الاعتبار. وعندما يكون ذلك في حالة مثل الحالة العربية، تريد كل شيء أو لا شيء، ولا تحفل في ذات الوقت بالتفاصيل الصغيرة كثيراً، فإن ذات الأحلام تبقى مجرد أحلام، بل أنها في النهاية تقود إلى الاحباط تلو الاحباط، ومن ثم العبثية ذاتها، عندما يكون «اللاشيء» هو النتيجة،

فالواقع في النهاية لا يعترف بمن لا يعترفون به. والمشكلة الأكبر كمنت في أن أصحاب الأحلام العربية عجزوا عن توحيد أنفسهم في حدود مشتركة يلتقي في إطارها الجميع، ويعملون على هذا الأساس، كما هو الحلم الصهيوني، ويجد فيه الجميع بعضاً منه، كما هو الحال في الحلم الصهيوني، بحيث يبقى الاختلاف في حدود الإطار. وتحولت الأحلام العربية وأصحابها إلى مجموعة من الخصوم، تعادي بعضها البعض أكثر مما تعادي حلم الآخر الطارئ، لا يرضى أحدها بأقل من ازاحة الآخر، وكانت النتيجة مجموعة من كوابيس عانى منها الفرد قبل الأمة، وتحولت الأمة إلى مجرد سراب لا معنى له، أو زئبق لا يمكن الامساك به. أما الجماهير ذاتها، فلم يكن هناك من يأبه بأحلامها الحقيقية، وبقي كل طرف يحاول أن يكون الوصي على هذه الجماهير، بحيث تحولت إلى مجرد ورقة سياسية يتعارك عليها هذا وذاك، رغم أن الجميع يتحدثون باسمها. فالعلة في النهاية لا تكمن في الحلم، ولا في حرارة الوجدان وثورة العاطفة والجنان، بقدر ما تكمن في كيفية تحقيق الحلم، وتجسيد العاطفة على أرض واقع لا يعترف بالسراب. وكانت المشكلة العربية المزمنة تكمن في عدم الاعتراف بالواقع، فلم يعترف الواقع بالعرب، وأصبحوا في النهاية على ما فعلوا نادمين، بل أصبح بعضهم على ما فعلوا نادمين، وبقي البعض الآخر مصراً على العزة بالإثم وهم لا يشعرون، وربما كانوا من الشاعرين، ولكنهم من غير المكترثين.

فالخطاب العربي التقليدي، خطاب العنتريات والمزايدات، و«يا ويلك يا اللي تعادينا يا ويلك ويل»، والكلام غير المسؤول، واللعب على أوتار الشارع المذبوح، ما زال يطل برأسه على استحياء أحياناً، وبكل صفاقة أحياناً، وكأننا قد نسينا كل تلك المآسي التي أحرقت لدينا الأخضر واليابس خلال أقل من نصف قرن من الزمان. خطابهم المدروس أوصلهم إلى السيادة في عالم لا ينتمون إليه، وخطابنا المنتفخ الأوداج أوصلنا إلى الخنوع في عالم جذورنا فيه تخرق الأرض وتبلغ الجبال طولاً. فها هو زعيم عربي ينادي بإعلان الحرب على إسرائيل، وكأن الحرب نزهة أو عراك بالأيدي في أحد الأزقة العربية. مثل هذا الزعيم يعلم أن مثل هذه الحرب لو نشبت، فلن يكون هو فيها من المشاركين، ولن يكون هو فيها من الخاسرين، ومزايدات حزيران (يونيو) 1967، التي أوردتنا المهالك ولا تزال، كانت قراراً غير مسؤول بالحرب، وما زلنا نعاني، ولكن ذلك لا يعني شيئاً لمثل هذا الزعيم. وزعيم عربي آخر ينادي بسقوط عملية السلام، ولم تبق هناك إلا المجابهة. كلام عام وكبير، يعني كل شيء ولا يعني أي شيء على الإطلاق، حين تُمارس السياسة الفعلية بكل قسوتها، في عالم لسنا فيه من أرباب السياسة أو صناع القرار أو المنتجين. كلام الهدف منه المزايدة على الشارع العربي المثار، وإخلاء المسؤولية في ما يبدو وكأنه تحمل للمسؤولية. نفس هذا الزعيم قاد شعبه إلى أكثر من حرب، فماذا كانت النتيجة؟ تطبيلا وتزميراً وغناء في الداخل المنهار لنصر مزعوم وعنتريات موهومة، فيما واقع الحال يقول بتحطم كرامة من أوهموا الناس بتحقيق الكرامة. ولكن المشكلة تبقى أننا قوم عاطفيون، كلمة تلعب برؤوسنا، فننساق من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، والعكس صحيح، بكلمة لا معنى لها في نهاية المطاف. ليس اللوم هنا منصباً على شعوب العرب والبسطاء من الناس، بقدر ما هو منصب على أولئك الذين لا تهمهم مصلحة الإنسان البسيط، فيتلاعبون بعواطفه وأحلامه وأمانيه، ويتقاذفونه بكلماتهم كالكرة، من أجل مصلحة لا تتجاوز ذات الزعيم، ولا تتخطى من هم حول الزعيم.

أن تشعل شمعة خير من أن تلعن الظلام، هكذا قالوا، وكانوا في ذلك من الصادقين. ومسافة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة، هكذا قالوا أيضاً، وكانوا في ذلك من الصادقين أيضاً. فمن السهل جداً أن تلعن، ومن السهل جداً أن تزايد وتتهم وتصرخ وتنادي بالويل والثبور وعظائم الأمور. ومن السهل أن تطرح حلولاً أنت أول من يعلم أنك غير قادر على تنفيذها، ولكن من الصعب أن تخطو خطوة عملية واحدة في عالم خدرته الشعارات، وأضاعت رشده المزايدات. ونحن نعلم أن المال هو محرك الأمور في عالم اليوم. فالمال هو الذي يحرك «اللوبيات» ويرجح اتخاذ القرارات في واشنطن وغيرها. والمال هو الذي تسعى دول اليوم إلى اجتذابه إليها، وتغير كل سياساتها من أجله. المال ببساطة هو الدم الذي يجري في عروق الكيان الدولي المعاصر، وكان اليهود وما زالوا يعلمون هذه الحقيقة، ويضعونها في الاعتبار حين التخطيط لهذا الهدف أو تلك الغاية. وعندما يتحدث عبد الله بن عبد العزيز عن إنشاء صناديق، ولو بمبالغ بسيطة، ولكنها تتمتع بالاستمرارية والثبات كمؤسسات، فإنه في الحقيقة يضع اصبعه على العصب الحساس في الكيان الدولي المعاصر ونظامه المحرك، وبذلك يكون قد أشعل شمعة لا ريب في أن شمعات أخرى سوف تشتعل منها، وخطوة لا ريب أن خطوات أخرى سوف تتلوها.

فالمال وحده في هذه المرحلة هو الذي يمكن أن يحرر العامل الفلسطيني البسيط مثلاً من الابتزاز الإسرائيلي، فلا يعود بحاجة لإحناء رأسه نتيجة الحاجة. والمال وحده هو القادر على فتح مدرسة أو انشاء مستشفى، وهذه كلها وغيرها هي البنية التحتية التي بدونها لا يمكن مجابهة الخصم مهما كان نوعه أو شكله. فعندما تريد السفر من مدينة إلى مدينة، فإن مجرد الرغبة لا تكفي، ومجرد حرقة السفر لا تكفي، إن لم يكن هناك طريق يمكن السير عليه، وإلا فإن الضياع هو المآل، مهما كانت النية، ومهما كان الاخلاص لهذه النية. نعم، اشعال شمعة واحدة خير ألف مرة من لعن الظلام، ولكن بشرط أوحد وحيد. هذا الشرط هو توفر الإرادة والعقلانية. إرادة تحقيق الهدف، وعقلانية كيفية تحقيق الهدف، وبدون ذلك فلا معنى لأي شيء، وستضيع ورقة الانتفاضة كما ضاعت قبلها أوراق وأوراق، ولن ينفع ساعتها أسف ولا ندم، ويبقى الضياع في النهاية هو المآل، ولا أريد أن أقول الاندثار.

مشاركة
Tweet

بريـد طبـاعة